سابعاً:

المداخل إلى قوة الفكر - قوة الإبداع كنموذج :

١ - تمهيد لابد منه :

طبقا لما أشرنا إليه من قبل ، فإن قوة الفكر تعنى الانعكاسات المادية الحادثة (أو التى يمكن أن تحدث) من جراء (أو من خلال) الانتفاع العملى بـ [أو التوظيف لـ] الرؤى والأحكام ، الناتجة عن إعمال الحس المعرفى المتولد من عموم كافة المؤثرات والعوامل ، التى يمكن أن تؤثر فيه [من تراكمات ومنتجات وتفاعلات وخصائص ، تأتى من (وتتعلق بـ) التراث والثقافة والانتماء والولاء والطموح والعلم والخبرة والقدرات الذهنية والعقل الجمعى ، ودرجة موضوعية الجهود والمعاناة المبذولة فى مواجهة التحديات وفى إحراز التقدم].

وهكذا .. طبقاً لهذا المنظور ، فإن المداخل لقوة الفكر تتعدد وتتنوع . هذا ما نود أن نؤكده .. تعدد وتنوع المداخل إلى قوة الفكر ، بل وتطور وتجدد هذه المداخل باستمرار . ولأنه يكاد لا يكون للفكر - الممكن - حدود ، فإن الفكر (بالنسبة للكيانات المجتمعية) يمكن - باستمرار - أن يأتى بما لم يكن من الممكن تخيله كحلول (ومخارج) لمشكلات و/أو أزمات و/أو تحديات .

هنا نود جذب الانتباه إلى تراتيب أو بناءات محددة ، جاءت فى العبارة اليابقة ، وبالتحديد «يمكن باستمرار أن يأتى» ... و... «ما لم يكن من الممكن تخيله» .. المعانى المقصودة من هذه التراتيب أو البناءات تشير إلى أنه (أى الفكر) لا ينضب (أو يمكنه أن لا ينضب) ، وأنه من الممكن أن يأتى بما لم يكن له مثال ، أو بما لم يكن متصوراً (أى أنه يمكنه أن يأتى بإبداع) .. هذه وجهة نظر تستند إلى معطيات من التاريخ ومن الزمن الحالى ، وهو ما يجعلنا نؤكد أن المداخل إلى «قوة الفكر» دائما لها احتمال وجود ، وممكنة (فضلاً عن تعددها وتنوعها) . إنها (أى المداخل الممكنة لقوة الفكر فى مواجهة أية مشكلة أو أزمة أو تحدى) تكاد أن يصعب إحصائها فى أنماط تفصيلية ثابتة . وعليه ، فنحن نكتفى فى مقام التناول الحالى بالإشارة - كمثال - إلى نموذج واحد فقط، وهو الإبداع المجتمعى . لقد تناولنا الابداع المجتمعى فى مناسبات سابقة[1] من منظور إدارى Managerial ، أما هنا فيهمنا جذب الانتباه إلى منظور آخر ، يختص بالكيفية (أو الأسباب) التى تجعل الابداع المجتمعى من حيث طبيعته ومخرجاته بمثابة مدخل إلى قوة الفكر ، بل ومن الممكن - أحياناً - أن يكون الإبداع المجتمعى ذاته ممثلا لقوة الفكر ، وتصبح مخرجاته مجسمة لفكر «قوة الفكر» ، أو لقوة «قوة الفكر» .

(١) يمكن الرجوع إلى تفاصيل أخرى بخصوص الإبداع المجتمعى ، تناولناها فى الإصدارات الآتية:

أ - الوطنية فى مواجهة العولمة - سلسلة اقرأ - دار المعارف - القاهرة - ١٩٩٩ .

ب- بناء وتنمية القدرات البشرية المصرية: القضايا والمعوقات - سلسلة قضايا التخطيط والتنمية- معهد التخطيط القومى- القاهرة - ٢٠٠٣ .

جـ - إدارة المعرفة والإبداع المجتمعى - طبعة ثالثة - دار العين للنشر - القاهرة - ٢٠٠٤ .

٢ – لماذا نموذج قوة الإبداع :

إستنادا إلى الأطر السابق الإشارة إليها بخصوص العلاقة بين الإبداع وقوة الفكر، ندّعى أن كافة المجتمعات (أو البلدان) العربية (وعلى رأسها مصر) تعيش حاجة (أساسية basic need) ماسة إلى الإبداع كغاية وكمنهج . ينبع ذلك – وباختصار شديد – من خلال الحاجة إلى القفز العالى إلى عمليات (أو مراحل) حياتية كبرى جديدة، بينما نحن لم نمارس بعمق العمليات (أو المراحل) الحياتية الكبرى الأسبق.

من أهم الأمثلة نشير فيما يلى إلى الحاجة إلى القفز إلى :

أ – إلى اقتصاد المعرفة [رغم أننا لم نمارس الاقتصاد الصناعى الحقيقى] .

ب– إلى إدارة المعرفة ذاتها [بمعنى أن ندير ونضبط أهدافها ومساراتها وتفاعلاتها وعائداتها .. إلخ ؛ رغم أننا لم نمارس بحق حركيات المرحلة الأسبق ، والخاصة بالإدارة بالمعرفة ، بمعنى استخدام مفاهيم وأدوات ومنتجات المعرفة فى عمليات الإدارة].

جـ– إلى التنظيم الشبكى [على الرغم من أننا لم نخبر التنظيم الهرمى بإيجابياته المهمة ، إلا – ربما – فى المؤسسات العسكرية] .

د – إلى التعاونية التنافسية co-opetition (فيما بيننا فى الأساس ، وأيضاً مع العالم الخارجى) ، رغم أننا لم نحقق كثيراً من النجاحات المهمة ، من خلال المرحلة السابقة ، والتى تميزت بالتنافسية الصرفة Competition .

هـ– إلى عالم الثورات الماكرو أو السوبر والثورات الميكرو[1] [رغم أن مخرجاتنا فى الأنشطة الأساسية لهذه الثورات ، وهى أنشطة البحث العلمى والتغيير التكنولوچى مازالت تخبو (ملحوظة : مصطلح «تخبو» هنا يجئ لزوم الالتزام الشكلى – بقدر الإمكان – فى طريقة التعبير عن أنشطة، تتسم بالمحافظة إلى درجة تقترب من الجمود ، على الرغم من أن طبيعتها – فى الأصل – هى التغيير)].

وهكذا ، توجد ضرورات مركبة للقفز العالى .. ؛ الأمر الذى يستوجب الاتجاه إلى الابداع .

(١) يمكن الإشارة إلى الثورات السوبر (أو الماكرو) باعتبارها الثورات، التى تتعلق بتغيير كامل على مستوى العالم ؛ أى الثورات الجلوبال (أو العالمية) وتحدث تلك الثورات نتيجة عوامل تبزغ من (وبواسطة) القوى المهيمنة – نسبيًا – على العالم . هذه العوامل تأخذ شكل قوة معنوية أو قوة تنظيمية أو أداة فيزيائية مجسمة (مثل العلم والتكنولوجيا والتجارة) . وأما الثورات الميكرو (أو الدقيقة) ، فهى تلك المتصلة بطريقة الحياة . إن مجال حدوث الثورات الدقيقة (أو الميكرو) هو دوائر اجتماعية صغيرة – نسبيًا – ومحددة . وهذه الدوائر يمكن أن تكون فى أجزاء من المجالات الحياتية ، مثل : التعليم ، والرياضة والصيدلة وإدارة المؤسسات وتصميم الآلات والبناء والبحث العلمى ... إلخ .. إلخ .
لمزيد من التفاصيل ، يمكن الاطلاع على «مستقبل الثورات» فى كتاب للمؤلف ، بعنوان «القفز فوق العولمة» – سلسلة اقرأ – دار المعارف – القاهرة – ٢٠٠٣ .

٣- فضل الإبداع المجتمعى فى إنجاز القفز العالى :

إذا كان من الممكن الإشارة إلى الإبداع ، بوجه عام ، على أنه «إحداث شيء على غير مثال مسبوق»، أو باعتباره «قدرة العقل على تكوين علاقات جديدة من أجل تغيير الواقع»، أو أنه «نقد للواقع والاجتهاد فى التمرد عليه وتجاوزه»، وهى تعريفات ربما تشترك جميعها فى معنى نشوء تغيير (أو تحول) إيجابى بالنسبة لما هو سائد؛ فإن التغيير أو التحول (أو الإنجاز) فى الإبداع المجتمعى يكون أكثر بكثير من المحصلة الجبرية لمجموع الإبداعات أو الجهود الفردية للمشاركين فى الإنجاز .. هنا تجب الإشارة إلى أن المقصود بالمشاركين الأفراد هو الكيانات المشاركة ؛ فالكيان الفرد هنا قد يعنى - بالفعل - شخصاً ، وقد يعنى مؤسسة أو منظمة ، وقد يعنى جماعة أو مدينة أو دولة .... إلخ . المهم من منظور المخرجات أن الإبداع المجتمعى ليس من الممكن وجوده فى مجموع الحيز الإبداعى المحتمل للكيانات الأفراد المشاركة فى إحداثه . هذا ، ومن الممكن التعرف النظرى (أو المجرد) على الإبداع المجتمعى ، من خلال الشكل التالى :

obeikandl.com

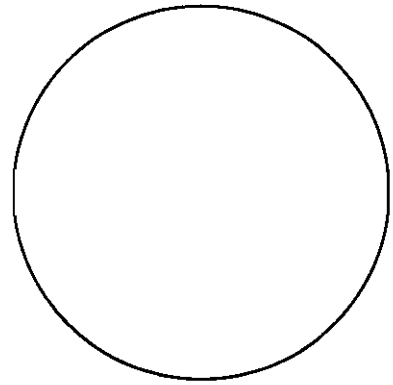

إمكانات وقدرات الكيان «١»

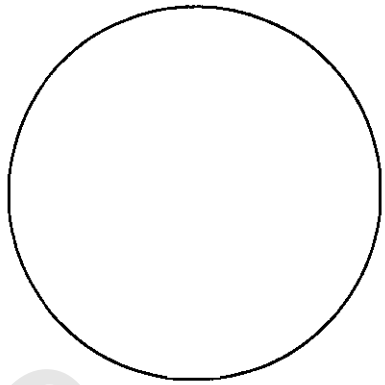

إمكانات وقدرات الكيان «٢»

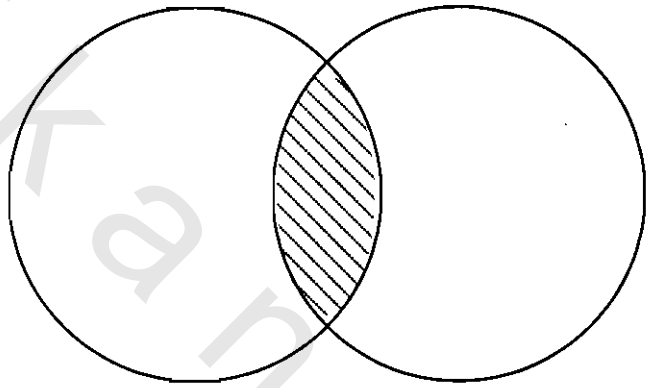

الجزء المظلل يشير إلى الإمكانات والقدرات المشتركة للكيانين «١» و«٢»

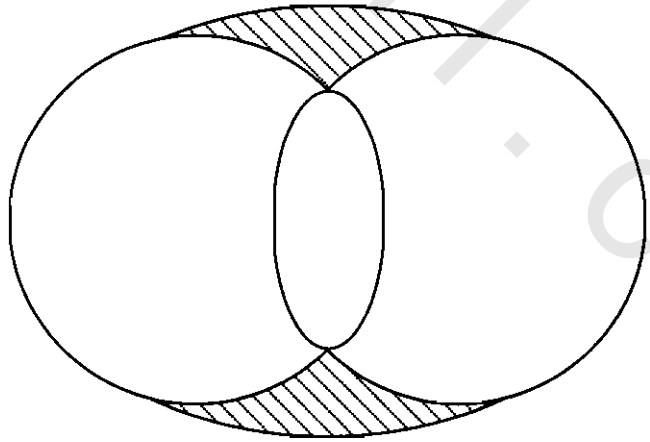

الجزء المظلل يشير إلى الإمكانات والقدرات والمخرجات المتولدة من الابداع المشترك للكيانين «١» و«٢» ؛ حيث هى إمكانات وقدرات ومخرجات، لم تكن موجودة عند أى منهما ، كل على حدة .

obeikandl.com

بعد تفحص الشكل السابق وتخيل المكوّن الابداعى فيه ، فإنه يمكن تخيل هذا الشكل ، إذا ما زاد عدد الكيانات المتشابكة (والمتكاملة) فيه ليكون عدة كيانات وليس فقط كيانان . عندما يزيد عدد الكيانات المتشابكة فى إطار تكاملى ، فإنه يتولد كيان جديد يصبح أكثر ارتقاءً من الكيانات المكونة له ، وتكون له خواص (من إمكانات وقدرات ومخرجات) جديدة تماما ، مختلفة تماما عن خواص الكيانات الأجزاء ، وأكثر إرتقاءا مقارنة بمجموع هذه الخواص .. إنه «الإبداع المجتمعى» ، والذى يمكّن الأجزاء المتشابكة المتكاملة من الارتقاء (أو القفز العالى) إلى مالا يمكن – مطلقا – أن تصله أيا من هذه الكيانات فى حالاتها الفردية .. الإيداع المجتمعى Societal Creativity يصل بالكيانات داخله إلى حالة تواجد لكائن أعلى ، لم يكن موجودا من قبل .. إنه نوع من التداخل (أو التفاعل) الاجتماعى الارتقائى Sociogenesis .

من أمثلة الإبداع المجتمعى فى الأنشطة الحيائية المختلفة (انتاجية وخدمية .. إلخ) ، يمكن الإشارة إلى إدارة التعامل بطريقة فى الوقت المناسب تماماً ، والتى يطلق عليها Just - in - time وتعرف عموماً بالاختصار JIT . إنها طريقة (أو نهج في الفكر والتعامل) من ابتكار اليابانيين ، وتهدف إلى (وتحقق) ضبط العلاقة بين الأحداث والأشياء؛ بحيث يجرى التنفيذ فقط فى الوقت المحدد دون زيادة أو نقصان ، ودون أيــة فقد (فــى مساحات المخازن ، أو طـوابير الانتظار ، أو فى فترة زمنية بينية .. إلخ) .

أيضاً من الأمثلة البسيطة والجميلة والفاعلة فى تاريخنا الوطنى الحديث نجذب الانتباه إلى الإبداع المجتمعى للقوات المسلحة المصرية فى عبور خط بارليف (ومن قبلها ، فى عدد من الممارسات العسكرية الفذة أثناء حرب الاستنزاف ، على غرار ضرب «إيلات» ، وتحطيم الحفار الإسرائيلى فى أوغندا ، وغيرها كثير) ، وكذلك الإبداع المجتمعى ، الذى حققه فريق العمل المصرى بخصوص إثبات مصرية طابا واستعادتها . هذا ، ويجدر بنا أيضاً الإشارة إلى الإبداع المجتمعى القومى الماليزى، والذى من خلاله أحدث الشعب الماليزى إنجازاً إختراقيًا تكنولوجيًا عظيماً ، فى غضون سنوات قليلة (ارجع إلى ما سبق تقديمه في إطلالة رقم ٣) .

٤– شكل المعانات فى غيبة الابداع المجتمعى كمدخل لقوة الفكر :

فيما يلى إشارات – موجزة جدًا – إلى نماذج من المعاناة (أو الإشكاليات القومية الناجمة عن غيبة الإبداع المجتمعى (والمنبهة للحاجة إليه) .

* ظهور أغلب التقارير الاستتراتيجية المحلية (عربيًا ومصريًا) فى صورة ملف يجمع داخله مجموعة دراسات (أو رؤى) ، أُنجزت كل منها بواسطة فرد (أستاذ أو

خبير أو عالم ... إلخ) .. إنها دراسات (أو رؤى) فردية . بهذا الشكل، فإن التقرير الإستراتيجى (والذى – بالطبع – لا يكون استراتيجيًا) لا يزيد عن كونه تجميعاً لجهود فردية .. يوجد إذاً غياب للجهود والتوجهات فوق الفردية ، عبر الفردية ، عبر الجماعات ، عبر الرؤى ... إلخ ، وبالتالى يوجد غياب لرؤى يمكن أن تكون بحق «استيراتيجية» .

* تنتشر حاليا موجة الحديث عن الإصلاح على كافة مستويات الحياة اليومية فى البلدان العربية .. ذلك بينما لم تجر أية استفادة بالأفكار والأقلام والدراسات ، التى تناولت الاصلاح والتغيير فى البلدان العربية على مدى عدة عقود ، رغم كونها لا تُحصى عدداً. ربما يكون من أسباب ذلك أن معظمها – إن لم يكن جميعها – لم يرتق بفاعلية حقيقية، فوق مستوى العمل (أو الطموح) الفردى.

* قد يمكن القول بأننا لم نعانى من أجل التقدم المجتمعى منذ حرب أكتوبر ١٩٧٣ (وقبلها حرب الاستنزاف) ، إلا فى قضية الدفاع عن مصرية طابا ، عندما تم اختيار سليم لخبراء مصريين من كافة التخصصات (سياسية وقانونية وجغرافية وعسكرية وعلوم ونفسية وتاريخية .. إلخ) على أسس قومية (وليست بوليتيكية) ، فكانت النتيجة على غير توقع الجانب الإسرائيلى ، عدالة لنا ومبهرة للأوساط المعنية فى العالم . السؤال الذى يجب ألا يتوه فى زحمة «الكلام» عن الإصلاح هو: **هل يمكن أن يحدث تقدم دون معاناة إحداثه** ؟ المحاولة الموضوعية للإجابة عن هذا السؤال ستضعنا – حتماً – وجهاً لوجه أمام إجراءات نعتبرها غريبة عنا وعن التقدم .. إجراءات مثل استجلاب إدارات إجنبية لإدارة مؤسساتنا الوطنية ، أو لإدارة النفايات (الزبالة) ، .... إلخ . من وجهة نظرى ، (بل كما هو معروف فى كل الأمم الناهضة) لا يمكن أن يحدث تقدم حقيقى دون سعى قومى منظم (أو معاناة قومية منظمة) إلى استيعاب التقدم العالمى وتوظيفه محليًا (بأنفسنا ، وبطريقتنا ، ومن منظورنا) .

* من المعروف علميا أن عائدات معاناة إحداث تطوير تكنولوچى، فى أى مؤسسة، يعود جزء صغير من عائدها (حوالى ٢٥ ٪) على المؤسسة نفسها ، و ويعود الجزء الأكبر (حوالى ٧٥ ٪) على بقية مؤسسات المجتمع . التطوير التكنولوچى الحقيقى هو بطبيعته – إذاً – عمل مجتمعى . ترى كم التكلفة (فضلاً عن سؤال : كم الفاقد؟) نتيجة تلكؤ السياسات العامة للتطوير التكنولوچى القومى لمدى عقود ؟

* فى عالم العولمة (أو حتى فى – مجرد – أى مجتمع صغير يريد أن يتقدم) هل يجوز الفصل بين ما هو اقتصادى وما هو اجتماعى ؟ ، بين ما هو صناعى وما

هو تكنولوجى ؟ ، بين ما هو تكنولوجى وما هو علمى ؟ ، بين الموارد الطبيعية ورأس المال الذهنى ؟ استفسارات تحتاج – بالقطع – إلى معالجات إبداعية مجتمعية ، تقوم على التشبيك والتكامل والارتقاء .

إنه إذاً أمر جدير باهتمام وطنى – بل إنسانى – واسع .. ، أن يكون هناك دائما بحث وبناء وتطوير بخصوص مداخل قوة الفكر ، بالقدر الذى يؤمِّن «فكر قوة الفكر» و«قوة قوة الفكر» .. ؛ وإلا ، فالبديل هو تسيُّد «فكر القوة» ، والذى هو بالفعل آخذ فى التغلغل بسرعة أو بأخرى، داخل كافة مستويات التواجد الإنسانى فى أماكن كثيرة من العالم .

وهكذا ، .. «قوة الفكر» ، أو يكون البديل عدلاً أقل وحياة أكثر تفسخاً .

خاتمة :

ربما يكـون مـن المناسب هنا التوقف قليلاً عند «**عبقرية الشهيد**» .. إنـه عبد المنعم رياض .. لقد قال لمحدثه أثناء حرب الاستنزاف ، بينما كانا يمدان بصريهما إلى الجانب الآخر من القناة : «المعركة القادمة هى معركة المستقبل .. إنها ليست معركة فى المكان المحدود ، وإنما معركة فى الزمان غير المحدود» .

يالبصيرة الاستشراف المستقبلى ..!!

لقد كانت حرب أكتوبر العظيمة بعد ذلك معركة مكان محدود ، وأيضاً زمن محدود ، تم فيها استعادة الكرامة .

أما معركة الزمان غير المحدود .. فإنها تعتمد على موقفنا من الزمن ..

درجة إبداعنا (وإبداع غيرنا) فى التعامل معه والاستفادة منه .

فالزمن المجرد هو .. هو ... ، قد يكون نصف زمن عند قوم ، وزمنين عند قوم آخر ، ومائة زمن عند قوم ثالث ، ... وهكذا .

التعامل الفاعل فى الزمان غير المحدود يحتاج إلى الإبداع .. إلى الفكر .. إلى قوة الفكر .. إلى الديالكتيك الإيجابى بين «الفكر» و«القوة» .

نبذة عن المؤلف

* أستاذ علم الأدوية .

* تخرج من كلية الصيدلة جامعة الإسكندرية (١٩٧٠) ، وأتم الدراسات العليا للماجستير والدكتوراه في الأكاديمية الطبية بوارسو وفى المعهد البولبندي لبحوث ورقابة الدواء (١٩٧٧) ، وأجرى دراسات لبعد الدكتوراه فى معهد السموم بجامعة زيوريخ – سويسرا (١٩٨٣) .

* أنشأ فى إطار الهيئة القومية للرقابة والبحوث الدوائية ثلاث وحدات علمية ، كانت الأولي من نوعها وطنياً وإقليمياً ، وهى أثر الأدوية على الأجنة (١٩٧٢)، وقسم فارماكولوجيا النمو (١٩٨٤)، ومركز الاتاحة الحيوية للأدوية (١٩٩٠).

* أول عربى ساهم فى تحرير الموسوعة الدولية للآثار الجانبية للأدوية (أعوام ٧٩ – ٨٠ – ١٩٨١) .

* أشرف علي (وناقش) عديد من الرسائل العلمية فى علوم الدواء ، وكذلك فى مجالات الإدارة والاقتصاد .

* شارك كخبير فى التكنولوجيا واقتصاديات العولمة فى إجتماعيات لخبراء مجموعة الدول الـ ١٥ ، كما شارك كاستشارى فى إجتماعات إقليمية لمنظمة الصحة العالمية فى مجالات صناعية وسياسات الدواء ، وأيضا كمحاضر فى شئون التنمية والعولمة والملكية الفكرية فى لقاءات قومية وإقليمية ودولية .

* عضو لجنة الثقافة العلمية (المجلس الأعلى للثقافة) ، وشعبة الدراسات الاستراتيجية والاستخدام السلمى للفضاء (مجلس بحوث الفضاء بأكاديمية البحث العلمى)، والمجلس المصرى للشئون الخارجية .

* من مؤلفاته :

* مستقبل صناعة الدواء فى مصر والمنطقة العربية – المكتبة الأكاديمية – ١٩٩٦ .

* التوافيقية منهج علمى تكنولوجى جديد – المكتبة الأكاديمية – ١٩٩٧ .

* إدارة المعرفة – رؤية مستقبلية – سلسلة إقرأ – دار المعارف – ١٩٩٨ (حصل على جائزة أحسن كتاب فى الدراسات المستقبلية) .

* التقدم الأسى : إدارة العبور من التخلف إلى التقدم – المكتبة الأكاديمية – ١٩٩٨ .

obeikandl.com

* الوطنية فى مواجهة العولمة – سلسلة إقرأ – دار المعارف – ١٩٩٩ .
* السياسة القومية للتنمية التكنولوجية (مجموعة مؤلفين) ١٩٩٩ .
* ثورة الدواء : المستقبل والتحديات – سلسلة إقرأ – دار المعارف – ٢٠٠١ .
* مستقبل إتفاقية – حقوق الملكية الفكية فى ضوء الإتجاهات العالمية المعارضة (محرر مشارك) مركز دراسات التجارة الخارجية –جامعة حلوان– ٢٠٠١.
* حقوق الملكية الفكرية – رؤية جنوبية مستقبلية – المكتبة الأكاديمية – ٢٠٠٢.
* القفز فوق العولمة – سلسلة إقرأ – دار المعارف – ٢٠٠٣ .
* السياسات الدوائية فى مصر : الأوضاع – الإشكاليات – المستقبليات ، كراسات منتدى السياسات العامة ، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية ، جامعة القاهرة – ٢٠٠٣ .
* قصة الدواء : علم وتحديات – المكتبة الأكاديمية – ٢٠٠٤ .
* إدارة المعرفة والإبداع المجتمعى [الطبعة ٣ من إدارة المعرفة] – دار العين – ٢٠٠٤ .
* تطوير التعليم العالي في مصر (مع مجموعة من الخبراء – تحرير د. إبراهيم بدران) – مكتبة الشروق الدولية – ٢٠٠٥ .
* الترتيبات الهيكلية والقانونية لقطاع الدواء المصرى فى إطار اتفاقيات التجارة العالمية : رؤية استراتيجية – جمعية التنمية الصحية والبيئية – ٢٠٠٥ .
* ذلك بالإضافة إلى مؤلفات فى سلسلة كراسات عروض الصادرة عن المكتبة الأكاديمية وهى :
  – إدارة العولمة (١٩٩٩) .
  – إدارة الابتكار الاسيتراتيجى والتغيير (٢٠٠٠) .
  – الاقتصاد الرقمى (٢٠٠١) .
  – التفكير بطريقة إستراتيجية (٢٠٠٢) .

openkandil.com